الجمال البائس

ـ ٤ ـ

قلت لها : إنَّ قلبي وقلبكِ يتجاليان[١] في هذه السَّاعة ، ويتباكيان ، أتدرين ماذا يقول لكِ قلبي ؟

إنَّه ليقول عنِّي : أَعْزِزُ[٢] عليَّ بأن تكوني هاهنا ، وأن تتألَّفَ منك هذه القصَّة ؛ الَّتي تبدأ بالوَصمة ، وتنتهي بالاستخذاء ، فتنطلق المرأة في مَتالِفها ، ومَهاويها ليبلغَ بها القدرُ ما هو بالغٌ ، وليس إلا الضَّرورة ، وسطوتها بها ، والإذلال ، ومهانته لها ، والاجتماع ، وتهكُّمه عليها ، والابتذال ، واستعباده إيَّاها ، ومهما يأتِ في القصَّة من معنىً ؛ فليس فيها معنى الشَّرف ؛ ومهما يكن من موقفٍ ؛ فليس فيها موقف الحياء ، ومهما يَجر من كلام ؛ فليس فيها كلمة الزَّوجة ! وأعْزِزْ عليَّ بأن أرى المصباحَ الجميلَ المشبوبَ ؛ الَّذي وُضع ؛ ليُضيء ما حوله ، قد انقلب ، فجعلَ يحرِق ما حوله ؛ وكان يتلألأ ، ويتوقَّد ، فارتدَّ يتسعَّر ، ويتضرَّم ويَجني على ما يتَّصل به ، وسقط بذلك سقطةً حمراء . . .

أفتدرين ماذا يقول لي قلبُك ؟

إنَّه يقول عنكِ : يا بُؤسَنا من نساء ! لقد وُضِعْنا وضعاً مقلوباً ، فلا تستقيم الإنسانيَّة معنا أبداً ، وكلُّ شيءٍ منقلبٌ لنا متنكِّرٌ ؛ والشَّفقة علينا تنقلِب من تلقاء نفسها تهَكماً بنا ، فنبكي من شفقةِ بعض النَّاس ، كما نبكي من ازدراء بعض النَّاس . يا بؤسَنا من نساء !

* * *

قالت : صدقت ! وكذلك تنقلب أسباب الحياة معنا أسباباً للمرض ، والموت . فاليقظة ليس لها عندنا النَّهارُ ، بل اللَّيل ، والصَّحو لا يكون فينا

---

(١) أي : يتكاشفان ، ويجلو كلاهما للآخر ، ويُوضِّح . (ع) .

(٢) « أعزز » : أشدُّ ، وأشقُّ ، وأصعب .

بالوعْي ، بل بالسُّكر ، والرَّاحة لا تكون لنا في السكون ، والانفراد ، بل في الاجتماع ، والتبذُّل ؛ وماذا يَرُدُّ العيش على امرأةٍ من واجباتها السَّهرُ ، والسُّكرُ ، والعربدة ، والتبذُّل ، وتَدريب الطِّباع بالوقاحة ، وتضْريةُ النَّفس[١] على الاستغواء ، والتَّصدِّي بالجمالِ للكسبِ من رذائل الفسَّاق ، وأمراضِهم ، والتعرُّض لمعروفهم بأساليبَ ؛ آخرُها الهوان ، والمذلَّة ، وٱستماحتهم[٢] بأساليبَ ؛ أوَّلها الخداع ، والمكر ؟

إنَّ حياةً هذه هي واجباتها لا يكون البكاءُ ، والهمُّ إلا من طبيعةِ مَنْ يحياها ، وكثيراً ما نعالج الضَّحك ؛ لنفتح لأنفسنا طُرقاً تتهارَب فيها معاني البكاء ، فإذا أثقلَنا الهمُّ ، وجَلَّ عن الضَّحك ، وعجزنا عن تكلُّف السُّرور ؛ ختلْنا[٣] العقلَ نفسَه بالخمر ، فما تسكرُ المرأة منَّا للسُّكر ، أو النَّشوة ، بل للنِّسيان ، وللقدرة على المَرح ، والضَّحك ، ولإمداد محاسِنِها بالأخلاق الفاجرة ، من الطَّيش ، والخلاعة ، والسَّفه ، وهذيان الجمال ؛ الَّذي هو شِعرُه البليغ . . . عند بُلغاء الفسَّاق .

قال الأستاذ (ح) : أهذا وحاضِرُ الغادة منكنَّ هو الشَّباب ، والصِّبا ، والجمال ، وإقبال العيش ، فكيف بها فيما تستقبل ؟!

قالت : إنَّ المستقبلَ هو أخوف ما نخافه على أنفسنا ، وليس من امرأةٍ في هذه الصِّناعة إلا وهي مُعِدَّةٌ لمستقبلها : إمَّا نوعاً من الانتحار ، وإمَّا ضرْباً من ضروب الاحتمالِ للذلِّ ، والخسف ، وليس مستقبلنا هذا إلا كمستقبل الثِّمار النَّضِرة إذا بقيت بعد أوانِها ؛ فهو الأيام العَفِنة بطبيعة ما مضى . . . بلى إنَّ مستقبلَ المرأة البغيِّ هو عقاب الشَّرِّ .

* * *

قال (ح) : هذا كلامٌ ينبغي أن تعلمه الزَّوجات ، فالمرأة منهنَّ قد تتبَرَّم بزوجها ، وتضْجَر ، وتغتمُّ ، وتزعم : أنَّها مُعذَّبةٌ ؛ فتتسخَّط الحياة ، وتندب

---

(١) « تضرية النفس » : تعويدها .

(٢) « استماحتهم » : جَعْلُهم يعطون ، ويجودون عن كرمٍ وسخاء .

(٣) « ختلنا » : خادعنا ، وراوغنا .

نفسها ، ثمَّ لا تعلم : أنَّه عذابٌ واحدٌ برجلٍ واحدٍ ، تألفه ، فتعتاده ، فترزق من اعتياده الصَّبر عليه ، فيسكن بهذا نِفارُها ، وتلك نعمةٌ واجبها أن تحمد الله عليها ، ما دام في النِّساء مثل الشَّهيدات ، تتعذَّب الواحدة منهنَّ فنوناً من العذاب بمئة رجلٍ ، وبألف رجلٍ ، وهم مع ذلك يَبتلون روحَها بعددهم من الذُّنوب ، والآثام .

وقد تستثقل الزَّوجة واجباتِها بين الزَّوج ، والنَّسل ، والدَّار ، فتغتاظ ، وتشكو من هذه الرَّجرَجة اليوميَّة في الحياة ؛ ثمَّ لا تعلم : أنَّ نساءً غيرها قد انقلبت بهنَّ الحياة في مثل الخسف بالأرض .

وقد تجزع للمستقبل ، وتنسى : أنَّها في أمان شرفِها ، ثمَّ لا تعلم : أنَّ نساءً يَترقَّبْنَ هذا الآتي ، كما يترقَّب المجرم غَدَاً الجريمة ، من يومٍ فيه الشرْطة ، والنِّيابة ، والمحكمة ، وما وراء هذا كلِّه .

فقلت : وهناك حقيقةٌ أخرى فيها العزاءُ كلَّ العزاء للزَّوجات ، وهي : أنَّ الزَّوجة امرأةٌ شاعرةٌ بوجود ذاتِها ، والأخرى لا تشعر إلا بضياع ذاتها .

والزوجة امرأةٌ تجد الأشياء ؛ الَّتي تتوزَّع حبَّها ، وحَنان قلبها ، فلا يزال قلبها إنسانيّاً على طبيعته ، يَفيض بالحبِّ ، ويستمدُّ من الحبِّ ؛ والأخرى لا تجد من هذا شيئاً ، فتنقلب وحشيَّة القلب ، يفيض قلبها برذائل ، ويستمدُّ من رذائل ؛ إذ كان لا يجد شيئاً ممَّا هيَّأته الطَّبيعة ؛ ليتعلَّق به من الزَّوج ، والدَّار ، والنَّسل .

والزَّوجة امرأةٌ هي امرأةٌ خالصة الإنسانيَّة ، أمَّا الأخرى فمن امرأةٍ ، ومن حيوانٍ ، ومن مادَّةٍ مُهلكةٍ .

وتمام السَّعادة أنَّ النَّسل لا يكون طبيعيّاً مستقرّاً في قانونه إلا للزَّوجات وحدَهنَّ ؛ فهو نعمتهنَّ الكبرى ، وثواب مستقبَلهنَّ ، وماضيهنَّ ، وبَركتهنَّ على الدُّنيا ؛ **ومهما تكن الزَّوجة شقيَّةً بزوجها ، فإنَّ زوجها قد أولدها سعادتها ، وهذه وحدَها مزيَّةٌ ، ونعمةٌ** ؛ أمَّا أولئك ؛ فليس لهنَّ عاقبةٌ[١] ؛ إذ النَّسل قلبٌ لحالتهنَّ كلِّها ؛ وهو غِنىً إنسانيٌّ ، ولكنَّه عندهنَّ لا يكون إلا فقراً ؛ وهو رحمةٌ ، ولكنَّها لا تكون إلا لعنةً عليهنَّ ، وعلى ماضيهنَّ . وقد وضعت الطَّبيعة في موضع حبِّ الولد الجديد من قلوبهنَّ ، حبَّ الرَّجل الجديد ، فكانت هذه نقمةً أخرى !

---

(١) يقال : ليس له عاقبةٌ ، أي : ليس له نسلٌ ، وعقبٌ . (ع) .

قال (ح) : أتريد من الرَّجل الجديد من يكون عندهنَّ الثاني بعد الأوَّل ، أو الثَّالث بعد الثَّاني ، أو الرَّابع بعد الثَّالث ؟

قلت : ليس الجديد عليهنَّ هو الواحد بعد الواحد إلى آخر العدد ، ولكنَّه الرَّجل ؛ الذي يكون وحده بالعدد جميعاً ؛ إذ هو عندهنَّ يُشبه الزَّوج في الاختصاص ، وفي شرف الحبِّ ، فهو الحبيب الشَّريف ؛ الَّذي تتعلَّقه إحداهنَّ ، وتريد أن تكون معه شريفةً ؛ ولكن من نقمة الطَّبيعة : أنَّ من وجدتْه منهنَّ لا تجدُه إلا لتعانيَ ألم فقده .

يا عجباً ! كلُّ شيءٍ في الحياة يُلقي شيئاً من الهمِّ ، أو النَّكد ، أو البؤس على هؤلاء المسكينات ، كأنَّ الطَّبيعة كلَّها ترجُمُهنَّ بالحجارة .

قالت هي : وليست الحجارة هي الحجارة فقط ، بل منها ألفاظ تُرْجَم بها المسكينة ، كألفاظك هذه . . وكتسمية النَّاس لها « بالسَّاقطة » ، فهذه الكلمة وحدها صخرةٌ ، لا حجر .

* * *

ثمَّ تنهَّدتْ ، وقالت : مَن عَسى يعرف خطر الأسرة ، والنَّسل ، والفضيلة كما تعرفها المرأة ؛ الَّتي فقدتها ؟ إنَّنا نحِسُّها بطبيعة المرأة ، ثمَّ بالحنين إليها ، ثمَّ بالحسرة على فقدها ، ثمَّ برؤيتها في غيرنا ؛ نعرفها أربعة أنواعٍ من المعرفة ؛ إذا عرفتها الزَّوجة نوعاً واحداً . ولكن : هل يُنصِفنا الرِّجال وهم يتدافعوننا ؟ هل يرضَوْن أن يتزوَّجوا منَّا ؟!

قلت : ولكنَّ **الأسرة لا تقوم على سوادِ عيني المرأةِ ، وحُمرة خدَّيها ، بل على أخلاقِها ، وطباعها** . فهذا هو السَّبب في بقاء المرأة السَّاقطة حيث ارتطمت ؛ وهي متى سقطت كان أوَّل أعدائها قانون النَّسل .

ومن ثمَّ كانت الزَّلَّة الأولى ممتدَّةً مُنسحبةً إلى الآخر ؛ إذ الفتاة ليست شخصاً إلا في اعتبارِها هي ، أمَّا في اعتبار غيرها فهي تاريخ النَّسل ، إنْ وقعت فيه غلطة ؛ فسد كلُّه ، وكذبَ كلُّه ، فلا يُوثق به .

وهذه الزَّلَّة الأولى هي بدءُ الانهيار في طباعٍ رقيقةٍ ، مُتداخلةٍ ، متساندةٍ ، لا يُقيمُها إلا تَماسُكها جُملةً ، وما لم يتماسكْ إلا بجملته ؛ فأوَّلُ السُّقوطِ فيه هو

استمرارُ السُّقوطِ فيه ؛ ولهذا لا يعرف النَّاسُ جريمةً واحدةً تعدُّ سلسلة جرائمَ لا تنتهي إلا سقطة المرأة ؛ فهي جريمةٌ مجنونةٌ ، كالإعصار الثائر ، يلفُّها لفّاً ؛ إذ تتناول المرأة في ذاتها ، وترجع على أهلها ، وذويها ، وتَرتمي إلى مستقبلها ، ونسلها ؛ فيهتكها النَّاسُ هي وسائر أهلها ، من جاءت منهم ، ومن جاؤوا منها .

والمرأة ؛ **الَّتي لا يحميها الشَّرف لا يحميها شيء** . وكلُّ شريفةٍ تعرف أنَّ لها حياتين إحداهما العفَّة ، وكما تدافع عن حياتها الهلاكَ تدافع السُّقوط عن عفَّتها ؛ إذ هو هلاك حقيقتها الاجتماعيَّة ؛ وكلُّ عاقلةٍ تعرف أنَّ لها عقلين تحتمي بأحدهما من نزوات الآخر ، وما عقلها الثَّاني إلا شرَف عِرضها .

* * *

قال الأستاذ (ح) : إنَّ هذه هي الحقيقة ، فما تسامح الرِّجال في شرف العِرض إلا جعلوا المرأة كأنَّها بنصفِ عقلٍ ، فاندفعت إلى الطَّيش ، والفجور ، والخلاعة ، أرادوا ذلك أم لم يريدوه .

قلت : وهذا هو معنى الحديث : « عِفُّوا تعفَّ نساؤكم » فإنَّ عَفاف المرأة لا تحفظه المرأة بنفسها ما لم تتهيَّأ لها الوسائل ، والأحوال ؛ الَّتي تعين نفسها على ذلك ، وأهمُّ وسائلها ، وأقواها ، وأعظمها تشدُّد الرِّجال في قانون العِرض ، والشَّرف .

فإذا تراخى الرِّجال ؛ ضعفت الوسائل ، ومن بين هذا التَّراخي ، وهذا الضَّعف تنبثق حرِّية المرأة متوجهةً بالمرأة إلى الخير ، أو الشَّرِّ ، على ما تكون أحوالها وأسبابُها في الحياة ، وهذه الحرِّيَّة في المدنيَّة الأوربيَّة قد عودت الرِّجال أن يغضُّوا ، ويتسمَّحوا ! فتهافت النِّساء عندهم ، تنال كلٌّ منهنَّ حكم قلبها ، ويخضع الرَّجل . . . .

على أنَّ هذا الَّذي يسمِّيه القومُ : حرِّيَّة المرأة ، ليس حرِّيَّةً إلا في التَّسمية ، أمَّا في المعنى ؛ فهو كما ترى :

إمَّا شرودُ المرأة في التماسِ الرِّزق حين لم تجد الزَّوجَ ؛ الَّذي يعُولها ، أو يَكفيها ، ويُقيم لها ما تحتاج إليه ، فمثل هذه هي حُرَّةٌ حرِّية النَّكدِ في عيشها ، وليس بها الحرِّيَّة ، بل هي مستعبدة للعمل شرَّ ما تُستعبد امرأة .

وإمَّا انطلاق المرأة في عَبثاتها ، وشهواتها مستجيبةً ، بذلك إلى انطلاق حرِّيَّة الاستمتاع في الرِّجال ، بمقدار ما يشتريه المال ، أو تعين عليه القوَّة ، أو يُسوغه الطَّيش ، أو يجلبه التهتُّك ، أو تدعو إليه الفنون ؛ فمثل هذه هي حرَّةٌ حرِّيَّة سقوطِها ؛ وما بها الحرِّيَّة ، بل يستَعبِدها التَّمتُّع .

والثَّالثة : حرِّيَّة المرأة في انسلاخِها من الدِّين ، وفضائله ، فإنَّ هذه المدنيَّة قد نسخَت حرامَ الأديان ، وحلالها بحرامٍ قانونيٍّ ، وحلالٍ قانونيٍّ ، فلا مَسْقطة للمرأة ، ولا غضَاضة عليها قانوناً . . . فيما كان يُعدُّ من قبلُ خِزياً أقبحَ الخِزْي ، وعاراً أشدَّ العار ، فمثل هذه هي حَرَّةٌ حرِّية فسادها ، وليس بها الحرِّيَّة ، ولكن تستعبدها الفوضى .

والرَّابعة : غطْرَسة المرأة المتعلِّمة ، وكبرياؤها على الأنوثة ، والذُّكورة معاً ؛ فترى : أنَّ الرَّجل لم يبلغ بعدُ أن يكون الزَّوجَ النَّاعمَ ، كقفَّاز الحرير في يدها ، ولا الزَّوجَ المؤنَّث ؛ الَّذي يقول لها : نحن امرأتان . . . فهي من أجل ذلك مُطلقةٌ مُخلاةٌ ؛ كيلا يكون عليها سلطانٌ ، ولا إمْرةٌ ، فمثلُ هذه حرَّةٌ بانقلاب طبيعتها ، وزيغِها ، وهي مستعبدَةٌ لهوسها ، وشذوذِها ، وضلالتها .

حرِّيَّة المرأة في هذه المدنيَّة أوَّلها ما شئت من أوصافٍ ، وأسماءٍ ، ولكنَّ آخرَها دائماً إمَّا ضَياعُ المرأة ، وإمَّا فسادُ المرأة .

والدَّليلُ على التواء الطَّبيعة في المدنيَّة استواء الطَّبيعة في البادية ، فالرِّجال هناك قوَّامون على النِّساء ، والنِّساءُ بهذا قواماتٌ على أنفسهنَّ ؛ إذ ينتقمون للمنكر انتقاماً يَفور دماً ، وبهذه الوحشيَّة يقرِّرون شرف العِرض في الطَّبيعة الإنسانيَّة ، ويجعلونه فيها كالغريزة ، فيحاجزون بين الرِّجال والنِّساء أوَّلَ شيءٍ بالضَّمير الشَّريف ؛ الَّذي يجد وسائله قائمةً مِنْ حوله .

* * *

قال الرَّاوي :

وغطَّت وجهها بيديها ، وقالت : إنَّك لا تزال ترجُم بالحجارة . . . إنَّ فيك متوحِّشاً .

قلت : بل متوحشةً . . .

إنَّكِ أنت قد تكلَّمت فيَّ ، فجمالك الَّذي يضع الإنسان في ساعةٍ مجنونةٍ ؛ ليمتِّعه بطيشها قد وضعَنا نحن في ساعةٍ مفكِّرةٍ ، وأمتعنا بعقلها ؛ وإذا قلت : جمالك ؛ فقد قلت : وحيك ؛ إذ لا جمال عندي إلا ما فيه وحيٌ .

أما قلتِ : إنَّك لو خُيِّرت في وجودك ؛ لما اخترتِ إلا أن تكوني رجلاً نابغةً يكتبُ ، ويفكِّر ، ويتلقَّى الوحيَ من الوجوه الجميلة ؟

فدقَّت صدرَها بيدِها ، وقالت : أنا ؟ أنا لم أقل هذا ! ثمَّ أَفْكَرَتْ[1] لحظةً وقالت : إذا كنت أنت تزعمُ : أنَّني قلتُه ، فأظنُّ : أنَّني قلته . .

قال (ح) : رجلٌ ! ويكتب ، ويفكِّر ! ولم تقل هي شيئاً من هذا ؟ أربعُ غلطاتٍ شنيعةٍ من فساد الذَّوق .

قالت : بل قل : أربعُ غلطات جميلةٍ من فنِّ الذَّوق ، إنَّ الرَّجل الظَّريفَ القويَّ الرُّجولة يجب عليه أن يغلط ؛ إذا حدَّث المرأة . . .

قال (ح) : لتضحكَ منه ؟

قالت : لا ، بل لتضحكَ له . . .

قلت : فلي إليكِ رجاءٌ .

قالت : إنَّ صوتكَ يأمر ، فقل .

فماذا قلتُ لها ، وماذا قالت ؟ .

* * *

(١) « أفكرت » : أفكر في الأمر : فكَّر فيه ؛ أي : أعمل العقل فيه ، وتأمَّله .